الشعراء/ التروبادور وثورة الموشحات

على أنه كائنة ما كانت أهمية التجديدات التي أدخلها الشعراء/ الموظفون الكبار، ولا يجادل في أهميتها أحد، فإنها لا ترقى إلى مستوى الثورة الحقيقية. كانت هذه الثورة تولد في مكان آخر بعيداً عن البلاط العباسي، في الأندلس وعلى يد شعراء لا نكاد نعرف عنهم شيئاً. لقد بُحث الأدب الأندلسي بحثاً مستفيضاً ولكننا لا نزال نجهل كيف بدأت ثورة الموشحات.

متى ظهر الموشح الأول؟ ومن الذي ابتكره؟ وهل كانت هناك تأثيرات أجنبية أم أن الموشح كان وليداً عربياً خالصاً؟ وهل بدأ الموشح زجلاً وانتهى شعراً، أم العكس؟ وهل حارب الخلفاء هذا النوع الجديد من الشعر أم تبنّوه ورعوا أصحابه؟ وما العلاقة بين الموشحات في المغرب والموشحات في المشرق؟ هل أثّر شعر الموشحات على الشعر الأوروبي؟ هذه مجرد أمثلة على أسئلة لا تزال بانتظار إجابات قاطعة وبوسعنا، بلا عناء، أن نضيف المزيد من الأسئلة [١].

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: سليم الحلو، **الموشحات الأندلسية: نشأتها وتطورّها**، (بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٦٥)، ص ٤٤ – ٦٣ .

obeikandl.com

على أنني لست هنا، بصدد التأريخ للشعر العربي، ولا أملك، حتى لو شئت، الأدوات اللازمة لمهمة كبرى كهذه. ما يعنيني هنا، هو أن أسجل رأيي الشخصي: كانت الموشحات الثورة الحقيقية الأولى في الشعر العربي. وكانت هذه الثورة تتحرك في اتجاهين. الاتجاه الأول، أنها قضت نهائياً على قدسية «عمود الشعر»، وحدة الوزن ووحدة القافية، هذه القدسية التي لم يجرأ شاعر عربي حتى ظهور الموشحات على المساس بها. وكانت النتيجة المنطقية لانتهاء الاحتكار الذي تمتع به «عمود الشعر» أن ظهرت أشكال كثيرة متنوعة تختلف كلياً عن شكل القصيدة التقليدية [١]. أمّا الاتجاه الثاني فكان أعمق وأخطر، وهو الخروج، كلية، عن بحور الشعر التقليدية. بإمكان الباحث أن يبذل الكثير من الجهد ويستعين بكثير من الخيال لإرجاع كل موشح إلى أصل أو فرع من بحر تقليدي، ولكن مثل هذه المحاولة ستكون مجهوداً عبثياً [٢]. لا شك، عندي على الأقل، أن الموشحات خرجت بشكل واضح حيناً وخفي أحياناً، على البحور المألوفة. كيف حدث ذلك؟ أراني أميل، بشدة، إلى الرأي القائل إن الموشحات ولدت في أحضان الناي والعود لا في أحضان الخليل بن أحمد. كما أراني أتفق مع الباحث اللامع إحسان عباس حين يقول: «إن الموشح لا يمكن أن يدرس

(١) انظر الملحق رقم «١» الذي يتضمن نماذج من شعراء الموشحات.

(٢) كيف يمكن أن يدخل ضمن البحور التقليدية شعر «لا يستقيم إلاّ بأن يقول المغني لا لا بين أجزائه»؟ انظر المرجع السابق، ص ٤٧ .

obeikandl.com

منفصلاً عن القاعدة الموسيقية التي ألّف على أساسها [١]». كما أجد نفسي أميل، من دون أن أدّعي أني أملك الدليل، إلى ما ذهب إليه باحث إسباني قال عن الموشحات: «إننا أمام نوع أدبي جديد تماماً، مخالف لتقاليد الشعر العربي. ومن هنا استنتجنا أنه من المحتمل أن يكون مستوحى من شعر غنائي كان شائعاً في أوساط الإسبان من أهل البلاد الأصليين [٢]».

بالإضافة إلى هذه الثورة في الشكل، وهي ثورة بقي شقّها الأول حياً بعد غروب الموشحات، ومات شقها الثاني بذهابها، كان هناك تجديد لا يخلو من أهمية في المضمون. حاول البعض أن يصنف شعر الموشحات على أساس أنه وصف للطبيعة. حقيقة الأمر أن الطبيعة لا تستغرق شعر الموشحات الذي اتسع لكل الأغراض التقليدية ولم يضق حتى بشطحات الصوفية. ما يميّز شعر الموشحات عن غيره - في رأيي - هو أنه كان احتفالاً عفوياً حاراً بالحياة، الحياة في حد ذاتها وعلى علاتها. هذا الفرح بالحياة لم يكن معروفاً لدى الشعر العربي قبل الموشحات، ولم يزر الشعر العربي بعدها. تحول «زمان الوصل في الأندلس» في الذاكرة العربية الجماعية إلى رمز «للدولتشي فيتا»، الحياة الرغدة الهانئة. وحتى هذه اللحظة تثير الموشحات عندما تُغنّى في النفس العربية الحنين إلى حياة أكثر حلاوة وسعادة.

---

(١) المرجع السابق، ص٧ .

(٢) انظر محمود علي مكي (مترجم ومُقدّم)، **ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي**، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩)، ص ٦١ .